الفصل السادس

جيل إنسانى متميز

هو جيل المؤمنين فى صدر الإسلام، جيل احتضن القرآن فتشرب تعاليمه وقيمه الأخلاقية وعاش حياته قرآنى التوجه، توحيدى المعتقد، أخلاقى السلوك، علمى التفكير، حضارى الوعى، وقد احتضنه أيضا هذا القرآن بالتوجيه والتعليم والإرشاد والهداية، جيل رباه النبى ﷺ فخلق من بداوة الإنسان العربى فى جاهليته إنسانا عربيا مؤمنا قوى الإيمان فى عقيدته وفى عبادته وفى أخلاقه وفى معاملاته، جيل إنسانى متميز لإنسان يمكن أن نصفه بأنه إنسان القرآن الذى على أكتافه قام الدين وانتشر، وقامت الدولة وتطورت، فى تآخ للمؤمنين وتآلف بين قلوبهم، قادة ومواطنين.

إن ذلك الجيل هو النموذج الأرقى للإنسان الذى يجب على جيلنا المعاصر أن يترسم خطاه، ويقتدى بسلوكه والسلوك الأخلاقى لمثله الأعلى النبى محمد ﷺ، وهو قرآن حى فى خلقه العظيم ورحمته للعالمين ﷺ.

إن جيل المسلمين المعاصر يحتاج أن يبنى نفسه على نفس نمط البنيان الشامخ والمتقدم لجيل الصدر الأول. يجب أن يتحرر جيلنا المعاصر من التسيب الأخلاقى

obeikandl.com

والتدهور فى القيم ومن براثن التخلف بكل صوره وبكل آثاره، وأن يتحصن بالعلم والمعرفة، وأن يطرح عن كاهله القصة الدينية التى لا أصل لها، وأوهام الخرافة والخيال، وتقديس الرجال، وجمود ضيق الأفق والانغلاق، والفهم المنقوص للإسلام.. وهى العوامل التى تؤدى إلى ضياع مفهومية الإسلام الحضارى وهدفية التربية والسلوك الأخلاقيين لتتأكد فى غيابهما انعزالية التواكل فى الدنيا، وحصرية الدين فى الشعائر التعبدية وغالبا فى شكلها لا موضوعها، فيتراجع الإنسان الذى هو فى الحقيقة قوام الدين والدولة معا، عن أداء دوره فى إجراء التغيير نحو الأفضل والإصلاح نحو الأحسن، ووعيه بالتمسك بحقوقه وحرياته، ومعرفته بأصول نهضته وتقدم مجتمعه ودولته، وطريق تمدنه وحضارته. ومن هنا تأتى ضرورة تجديد الخطاب الدينى لتكون رسالة علماءه الأساسية هى الارتقاء بالإنسان المواطن فى الدولة عن طريق بيان الدور الأخلاقى الذى لا غنى عنه للدين فى بناء هذا الإنسان المواطن وتنمية وعيه الحضارى وتصحيح مفهومه للدين بتوضيح دوره فى البناء والتعمير عملا فى الدنيا لتحقيق أمانة الخلافة فى الأرض، ودوره فى تدعيم البنية المؤسسية للدولة والأصول التى تنبنى عليها نهضتها وتنبنى عليها جهودها لتجاوز التخلف ومشاكله.. وذلك لن يتحقق إلا بتنمية الوعى الأخلاقى والسياسى والاقتصادى والعلمى والثقافى والاجتماعى فى إطار الوعى برسالة الدين الحضارية.

ومن هنا تبرز أيضا أهمية تجديد الخطاب السياسى من أجل تنمية وعى الإنسان المواطن، وتوجيهه لتعلم قيم مثل الديمقراطية والشورى من خلال تربيته تربية سياسية ديمقراطية يستطيع بها - مثلا - أن يفهم ويقيم دور المجالس النيابية فى التشريع والرقابة وتقييم السياسات، ودور الضوابط الدستورية والرقابة القضائية فى حماية مباشرته لحقوقه وحرياته وواجباته وفقا للدستور والقوانين، ودور السلطة التنفيذية الخاضع للدستور والقانون دون أن يتجاوزهما، وأهداف وسياسات الحكومة فى النطاق المحلى والإقليمى والدولى، وأهدافها وخططها الاقتصادية والاجتماعية.. وأهداف رسائل الثقافة والفنون والآداب والإعلام.. الخ.

إننا أمام تساؤل مضمونه من هو إنسان القرآن، الذى كان يمثله إنسان الجيل الأول المتميز؟

« إنسان القرآن هو إنسان القرن العشرين، ولعل مكانه فى هذا القرن أوفق وأوثق من أمكنته فى كثير من القرون الماضية؛ لأن القرون الماضية تلجئ الإنسان إلى البحث عن مكانه فى الوجود كله، وعن مكانه بين الخلائق الحية على هذه الأرض، وبين أبناء نوعه وأبناء الجماعة التى يعيش فيها من ذلك النوع، وبين كل نسبة ظاهرة أو خفية ينتمى إليها، كما ألجأه إلى ذلك كله هذا القرن العشرون .. وإن المنصف بين النصائح لا يستطيع أن ينصح لأهل القرآن بعقيدة فى الإنسان والإنسانية أصح وأصلح من عقيدتهم التى يستوحونها من كتابهم، وإن القرن العشرين سينتهى بما استحدث من مبادئ ومذاهب وأيديولوچيات ولا ينتهى ما تعلمه أهل القرآن من القرآن...

الإنسان فى عقيدة القرآن هو الخليفة المسئول بين جميع ما خلق الله، يدين بعقله فيما رأى وسمع، ويدين بوجدانه فيما طواه الغيب فلا تدركه الأبصار والأسماع. والإنسانية من أسلافها إلى أعقابها أسرة واحدة لها نسب واحد وإله واحد، أفضلها من عمل حسنا واتقى سيئا، وصدق النية فيما أحسنه واتقاه..

ولقد ذكر الإنسان فى القرآن بغاية الحمد وغاية الذم فى الآيات المتعددة والآية الواحدة، فلا يعنى ذلك أنه يحمد ويذم فى آن واحد، وإنما معناه أنه أهل للكمال والنقص بما فطر عليه من استعداد لكل منهما، فهو أهل للخير والشر لأنه أهل للتكاليف..

الإنسان مسئول عن عمله - فردا وجماعة - لا يؤخذ واحد بوزر واحد ولا أمة بوزر أمة. أما مناط المسئولية فى القرآن، فهو جامع لكل ركن من أركانها يتغلغل إليه فقه الباحثين عن حكمة التشريع الدينى أو التشريع فى الموضوع، فهى بنصوص الكتاب قائمة على أركانها المجملة: تبليغ وعلم وعمل، فلا تحق التبعية على أحد لم تبلغه الدعوى فى مسائل الغيب ومسائل الإيمان..

أما العلم فإن أول آية تلقاها صاحب الدعوة الإسلامية كانت أمرا بالقراءة وتنويها بعلم الله وعلم الإنسان.. وأول فاتح فى خلق الإنسان كان فاتحة العلم الذى تعلمه آدم وامتاز به على سائر المخلوقات.. وأما العمل فهو مشروط فى القرآن بالتكليف الذى تسعه طاقة المكلف وبالسعى الذى يسعاه لربه ونفسه.. ورسل البلاغ هم أول المكلفين بالعلم والعمل، أممهم جميعا أمة واحدة هى «الأمة الإنسانية» وإلههم جميعا إله واحد هو «رب العالمين»..

وفيما ذكر فيه الإنسان من آيات الكتاب وصف له، هو فى الذروة من الكمال المقدور له بما استعد له من التكليف، ووصف له وهو فى الدرك الأسفل من الحطة التى ينحدر إليها بهذا الاستعداد، وكل هذه الآيات توسع مفصل فيما ورد من نصوص الأمر والنهى، والعظة والتذكير، والثواب والعقاب.. فالإنسان أكرم الخلائق بهذا الاستعداد المتفرد بين خلائق السماء والأرض، من ذى حياة أو غير ذى حياة. ولكنه ينفرد بين الخلائق بمساوئ لا يوصف بها غيره؛ لأن السيئة والحسنة - على السواء - لا يوصف بهما مخلوق غير مسئول.

فهذا المخلوق المسئول يوصف دون غيره من الخلائق بالكفر والظلم والطغيان والخسران والفجور والكنود؛ لأنه دون غيره أهل للإيمان والعدل والرجحان والعفاف.. وقد يذكر بالضدين فى الآية الواحدة، ويكون المعنى الموافق لسائر معانى الآيات أن الجمع بين النقيضين فى الإنسان ينصرف إلى وصف واحد، هو وصف الاستعداد الذى يجعله أهلا للترقى إلى أحسن تقويم وأهلا للتدهور إلى أسفل سافلين..

والآيات التى قصُرَ فيها القول على خلق جسد الإنسان، لم تخل ومما يوحى إلى المخلوق المسئول أن أطوار خلقه السوى إعداد لما هو أشرف من حياته الحيوانية، وبرهان من براهين التبليغ برسالة الغيب، عسى أن ينظر فى الخلق فيرى فيه آثار الخلاق الذى لا تدركه الأبصار والأسماع.

ولايسأل الإنسان عما يجهل، ولكنه يسأل عما علم وعما وسعه أن يعلم، وما من شئ فى عالم الغيب أو عالم الشهادة هو محجوب كله عن علم الإنسان؛ فما وسعه من علم فهو محاسب عليه..

مكان الإنسان فى القرآن الكريم هو أشرف مكان له فى ميزان العقيدة وفى ميزان الفكر وفى ميزان الخليقة الذى توزن به طبائع الكائن بين عامة الكائنات، فهو الكائن المكلف، وأى شىء أعجب من هذه الخاصية المحكمة ينفرد بها القرآن بين تعريفات الفلسفة وتعريفات الدعوة الدينية. إنها عجيبة لم تأت بها مصادفات التضمين والتخمين؛ لأن الكتاب الذى ميز الإنسان بخاصية التكليف هو الكتاب الذى امتلأ بخطاب «العقل» بكل ملكة من ملكاته وبكل وظيفة عرفها له العقلاء والمتعقلون، قبل أن يصبح العقل درسا يتقاضاه الدارسون كنها وعملا، وأثرا فى داخله وفيما خرج عنه، وفيما يصدر منه ويئول إليه.

العقل وازع «يعقل» صاحبه عما يأباه له التكليف.. العقل فهم وفكريتقلبان فى وجوه الأشياء وفى بواطن الأمور.. العقل رشد يميز بين الهداية والضلال.. العقل روية وتدبر.. العقل بصيرة تنفذ وراء الأبصار.. والعقل ذكرى تأخذ من الماضى للحاضر، وتجمع العبرة مما كان لما يكون، وتحفل وتعى وتبدئ وتعيد.. والعقل بكل هذه المعانى موصول بكل حجة من حجج التكليف، وكل أمربمعروف، وكل نهى عن محظور.. أفلا يعقلون.. أفلا يتفكرون.. أفلا يبصرون .. أفلا يتدبرون .. أليس منكم رجل رشيد.. أفلا تتذكرون..

إن قيام النبوة على إقناع العقل المسئول بآيات الكون قد اختتم سلطان الأحبار والقادة، كما اختتم سلطان النبوات بالمعجزات وخوارق العادات، فلا يعذر الإسلام إنسانا يعطل عقله ليطيع السادة المستكبرين أو ليطيع الأحبار المتسلطين بسلطانى المال والدين.

والإنسان روح وجسد وهما ملاك الذات الإنسانية، تتم بهما الحياة ولا تنكر أحدهما فى سبيل الآخر، فلايجوز للمؤمن بالكتاب أن يبخس للجسد حقا ليوفى حقوق الروح، ولا يجوز له أن يبخس للروح حقا ليفى حقوق الجسد، ولايحمد منه الإسراف فى مرضاة هذا أو مرضاة ذاك.. وليس السعى فى سبيل الدنيا ضلالا عن سبيل الآخرة، وليس فى القرآن فصام بين روح وجسد، أو انشقاق بين عقل ومادة، أو انقطاع بين سماء وأرض، أو شتات فى العقيدة يوزع «الذات الإنسانية» بين ظاهر

وباطن وغيب وشهادة، بل هى العقيدة على هداية واحدة تحسن بالروح كما تحسن بالجسد فى غير إسراف ولا جور عن السبيل..

وقد ذكرت النفس فى القرآن بجميع قواها التى يدرسها اليوم علماء النفس المتخصصون لهذه الدراسات فى موضوعاتها الحديثة. والإنسان يعلو على نفسه بعقله، ويعلو على عقله بروحه، فيتصل من جانب النفس بقوى الغرائز الحيوانية ودوافع الحياة الجسدية، ويتصل من جانب الروح بعالم البقاء وسر الوجود الدائم وعلمه عند الله، وحق العقل أن يدرك ما وسعه من جانبها المحدود، ولكنه لايدرك الحقيقة كلها من جانبها المطلق إلا بإيمان وإلهام..

وقد وضع القرآن الإنسان ـ علما ودينا ـ فى موضعه الصحيح حين جعل تقسيمه الصحيح أنه «ابن ذكر وأنثى» ، وأنه ينتمى بشعوبه وقبائله إلى الأسرة البشرية التى لا تفاضل بين الأخوة فيها بغير العمل الصالح، وبغير التقوى، وقد نسميهم باصطلاح الأسماء «أمما» كثيرة كلما تباعدت بينهم المواطن وتحيزت بهم الحدود وتشعبت بينهم العقائد واللغات، ولكنهم قبل هذا الاختلاف أمة واحدة لها إله واحد هو رب العالمين..

إن القرآن يضع الإنسان فى موضعه الذى يتطلبه فى القرن العشرين، فلا تسعده عقيدة أخرى أصح وأصلح له من عقيدة القرآن؛ لأن عصر العلاقات العالمية لا يتطلب «مواطنا» أصح وأصلح من الإنسان الذى يؤمن بالأسرة الإنسانية، ويستنكر أباطيل العصبية ومفاخر العنصرية ليعترف بفضل واحد متفق عليه فى كل أرض وبين كل عشيرة آدمية، وهو فضل الإحسان فى العمل واجتناب الإساءة.

وليس لهذا العصر حق على بنيه أصح وأصلح من حق الشعور بالمسئولية والنهوض بأمانة التكليف والاحتكام إلى العقل فى كل ما يسعه العقل، ثم اطمئنان الضمير إلى الخير فيما خفى عليه من شئون الغيب المجهول، ولا بد فى كل عصر قديم أو حديث، من غيب مجهول.

إن القرآن يعطى القرن العشرين إنسانه الذى ليس من إنسان أصلح منه وأصح لزمانه، فإذا آمن الإنسان بالله والنبوة فليس أصح ولا أصلح لعصر الوحدة

الإنسانية من الإيمان بهذا الإله الواحد وتعاليمه التى تسلمه لعقله وضميره، وتسأله عن إصلاح نفسه وإصلاح دنياه بما يدعوه إليه قوام الروح والجسد وطيب الحياة فى الدنيا والآخرة»[١].

إن الإنسان فى الدول المتقدمة اليوم، قد وصل إلى آفاق كثير من المبادئ القرآنية فى التطبيق العملى بالنسبة لمجتمعاته هو، من تقدير لقيمة العمل وإتقان العمل والاهتمام بجودة الإنتاج ووفرته.. وصل إلى تطبيق العديد من القيم والمبادئ القرآنية فيما يتصل بالحرية والمساواة والخضوع بالتساوى أمام القانون ومراعاة كرامة الإنسان واحترام الفكر واحترام آدمية الإنسان والتعامل بالصدق والأمانة والانضباط والنظام والعناية بالبيئة وبالحيوان والتكافل الاجتماعى.. الخ كما لم يعرفه أو يطبقه المسلمون أنفسهم وهم أصحاب القرآن العظيم.

ولعل الغرب قد سبقنا إلى تطبيق كثير من تعاليم القرآن من حيث لايدرى أن هذا الكتاب يدعو إليها ويؤكدها ويناصرها.. مما يزيد من مسئولياتنا نحن المسلمين، أمام أنفسنا أفرادا وشعوبا ودولا وأمة، وأمام العالم ثانيا وأمام الله من قبل ومن بعد.

إننا مسئولون أن نفهم جوهر هذا القرآن وقيم هذا القرآن وأخلاقيات هذا القرآن وتشريعات هذا القرآن وتوجيهات هذا القرآن.. لننهض بحاضرنا المتخلف نحو آفاق المستقبل المتقدم المزدهر الذى ننشده لأمتنا الإسلامية وشعوبنا المسلمة، ترقيا من دور النمو، وخروجا من واقع التأخر، وتطويرا لواقعنا الاقتصادى، وإكمالا للحرية المنضبطة فى واقعنا السياسى، عن طريق تجديد تفكيرنا الدينى ذاته وتطوير مفاهيمنا الدينية التى بناها السابقون صالحة لعصورهم ولم نستكمل نحن مسيرة تنميتها وتوسيعها وإثرائها من خلال واقعنا ومشكلاته عن طريق الفكر المجدد والفهم المتجدد والاجتهاد المثمر المواكب لمشكلات العصر واحتياجاتنا الحاضرة والمستقبلة، بعيدا عن التمسك بالقشور وإعطاء أهمية للموضوعات غير المهمة أو

(١) كتب المرحوم الأستاذ/ عباس محمود العقاد هذه الكلمات فى منتصف القرن العشرين تقريبا، ولو أنه عاش إلى يومنا هذا لكتب عن إنسان القرن الواحد والعشرين.

الملحة، لاتفيد الإنسان المواطن لا فى عقيدته ولا فى عبادته ولا فى أخلاقه ولا فى معاملاته ولا فى إعمار دنياه أو تقدم دولته.

إن الدولة ومؤسساتها وهيئاتها الأهلية والحكومية لايمكن أن تتغير أحوالها إلى الأفضل إلا إذا تغير حال إنسانها المواطن إلى الأفضل، والإنسان المواطن لا يمكن أن ينصلح حاله ويرتقى إلى الأحسن إلا من خلال الدين بخطابه الموضوعى العلمى والإيمانى والأخلاقى، ولذلك فإن الدين والدولة الحديثة - فى هذا الإطار - يتداخلان ويعتمد كل منهما على الآخر، متفاعلين معًا لإيجاد الإنسان المواطن الصالح المتصف بالوعى بحقوقه وواجباته، وبالمعرفة بحاجاته الأساسية وحاجات مجتمعه، وبالعلم بالأسس التى تنبنى عليها مؤسسات حكومته ودولته، وبالثقافة التى يطلع بها على تجارب الآخرين فى عالمه، وبالمعرفة المهنية، الفنية والتقنية، التى تحقق الإتقان فى عمله والجودة فى إنتاجه، وبالأخلاق التى تحقق الإخلاص فى عمله والانتماء لمنشأته.

□ □ □